الحياة
في ظل
الأصول الأربعة

عبدالله بن عبده نعمان العواضي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا الكتاب منشور في

شبكة الألوكة

www.alukah.net

الحـــياة
في ظل
الأصول الأربعة

تأليف

عبد الله بن عبده العواضي

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ }[آل عمران١٠٢]، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً }[النساء١]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً } {يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً }[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن من المعلوم أن لكل بناء أركانًا يعتمد عليها، وأعمدة ينطلق سمُّوه منها، وقاعدة راسخة يقوم بقاؤه على رسوخها.

ومما لا شك فيه لدى العقلاء: أن النجاة من الأضرار العاجلة والآجلة مطلب من أعظم مطالب الحياة، وهذا المطلب لا يناله الإنسان إلا إذا قام بناؤه على أركان أربعة:

صلاح شأن الإنسان مع الله تعالى، وصلاح شأنه مع كتابه الذي أنزله على رسوله، وصلاح شأنه مع رسوله الذي بعث إليه، وصلاح شأنه مع الدين الذي جاء به ذلك الرسول.

ونحن أمةَ محمد -عليه الصلاة والسلام- كذلك؛ فإن نجاتنا قائمة على صلاح حياتنا مع الله تعالى ربنا، ومع القرآن الكريم كتابنا، ومع محمد -عليه الصلاة والسلام-نبينا، ومع الإسلام ديننا.

فهذه معاقد النجاة، وأعمدة صلاح الحياة في الدنيا والآخرة.

وهذه الأصول الأربعة هي التي يجد فيها الناس البعيدون عنها الأجوبةَ الشافية عن الأسئلة الكبرى التي أوصلت بعضهم إلى الشك والحيرة، هذه الأسئلة هي: من أين جئنا؟، ولماذا جئنا؟، وإلى أين نصير؟.

إن هذه الأصول الأربعة من فهمها الفهم الصحيح، وعمل بما تدعو إليه في الباطن والظاهر فإنه يظفر بسعادته ونجاته، في عاجل أمره وآجله.

وهي أصول يدل بعضها على بعض، ويكمل بعضها بعضًا في تحقيق النجاة؛ إذا لا تتم النجاة إلا بها جميعًا.

فالله تعالى ربنا، والقرآن كلامه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم رسوله، والإسلام الذي جاء به هو دينه الذي شرعه، والقرآن يدعو إلى عبادة الله وحده، وإلى اتباع رسوله، والأخذ بالإسلام، ورسولنا محمد عليه الصلاة والسلام جاء بالإسلام من عند ربه، ونزل القرآن عليه من أجل الدعوة إلى توحيد الله تعالى، والإسلام معناه: الانقياد التام لله تعالى، ولكتابه، ولرسوله عليه الصلاة والسلام.

وفي الصفحات الآتية سأتحدث عن هذه الأصول الأربعة، وعن الحياة الصحيحة معها، وعن المطلوب منا- نحن المسلمين- نحوها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين

وكتبه: عبد الله بن عبده العواضي

٦/٥/١٤٣٨هـ، ٣/٢/٢٠١٧م.

أهل الثناء والمجد:

إن البشر إذا تحدثوا عن البشر ممن يحبون أو يجلّون قادتهم الرغبةُ أو الرهبة، أو شغف المصلحة، أو إفراط المحبة إلى المبالغة في المدح والوصف، وساقوا من الذكر والثناء ما يفوق ما يستحقه ذلك الممدوح، فصار ذلك الثناء في حقيقته ذمًا؛ لأنه كشف عن نقص الإنسان، وافتقاره من تلك الصفات؛ لأن الإنسان ملازم للنقص مهما طلب الكمال، ولا يفارقه العيب مهما تتره عن معيب الأفعال والأقوال.

أما حديث الإنسان عن الخالق تبارك وتعالى حديثَ المدح والثناء فإنه يبقى حديثًا قاصراً عن إدراك كمال صفات الله، ونعوت جلاله، وجميل فعاله، وآيات جماله؛ وسبب ذلك: أن الله تعالى له الكمال المطلق في ذاته، وجميع صفاته وأفعاله سبحانه وتعالى.

وإنّ مديحَ الناسِ حقٌ وباطلٌ ... وَمَدْحُكَ حَقٌّ لَيسَ فيهِ كِذابُ[1]

فَلَيْتَكَ تَحْلُو، وَالحَيَاة مَرِيرَة ... وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالأَنَامُ غِضَابُ

وَلَيْتَ الّذي بَيْني وَبَيْنَكَ عَامِرٌ ... وبيني وبينَ العالمينَ خرابُ

إذا نِلْتُ مِنكَ الوُدّ فالكلُّ هَيّنٌ ... وَكُلُّ الذي فَوْقَ التّرَابِ تُرَابُ[2]

فمهما أثنينا على الله تعالى ووصفناه، وذكرنا كماله ومدحناه؛ فإن حديثنا عن ذلك كقطرة من بحر، أو ذرة في رمل، أو نقطة في صحراء مترامية الأطراف.

قال تعالى: ((وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ))[لقمان:٢٧].

لو كلُّ شيء في الوجود تكلّما ... بجميعِ ألوانِ الثناء وأنعما

وأتى بأفنانِ البلاغة كلِّها ... مدحًا لمن برأَ الوجودَ وأحكما

لم يبلغِ المعشارَ من أوصافه ... مهما أجادَ من الكلام ونمنما

وفي الحديث القدسي: " يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر"[3].

---

١ البيت للمتنبي، شرح ديوان المتنبي (٢/ ٢١٦).

٢ الأبيات لأبي فراس، لآلئ اللآلي (ص: ٤).

٣ رواه مسلم.

ثمرة الحديث عن الله سبحانه وتعالى:

إن الحديث بالثناء الصادق على الله تعالى حديث يستنهض الأرواح لتسبح في آفاق الاشتياق إلى ربها، وتسارع إلى فعل ما يرضيه في فرصة حياتها، وتسترخص كل عناء في سبيل الوصول إليه، ونيل ما لديه لمن قام بما عليه، من فعل أوامره، واجتناب زواجره، وهو حديث يستحثها أيضًا لتنفض عنها غبار الغفلة، وتَرمَّ معارج المحبة، وتنير طريقها بعد أن خفتت بعض مصابيحها، وتثير خفيات الأشواق لتجدد العهد مع الخلاّق.

ماذا أقول وما يفوه لساني وتخطه في المادحين بناني
ماذا أقول عن الذي أوصافه جلّت عن الإحصاء كل أوان
اللهُ أجمل أحرفٍ رددتها وأجلُّ لفظ في فمي وجَناني
الله أحلى كِلْمةٍ وصلتْ إلى سمعي وأعذبُ ما جرى ببياني

صاحب الكمال المطلق:

الله جل جلاله له غاية الكمال ونهايته، فهو ذو الكمال المطلق في ذاته وصفاته، وأفعاله ومقدوراته، ليس به نقص ولا عيب، ولا شين ولا ريب، سبحانه الذي تنزه عن نقصان الخلال، وتفرد بغاية الكمال، ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ))[الشورى:١١]. وقال تعالى: ((قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ))[الإخلاص:١]^((اللَّهُ الصَّمَدُ))[الإخلاص:٢]^((لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ))[الإخلاص:٣]^((وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ))[الإخلاص:٤]، وقال تعالى: ((اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ))[البقرة:٢٥٥].

الرب العظيم:

والله عز وجل هو ذو الجلال والعظمة، فلا عظيم أعظم من الله، ولا يستحق أحد أن يعظّم كما يعظم الله تعالى، ولما كان ربنا تعالى عظيمًا عظمة مطلقة وجب على العباد تعظيمه وتوقيره في القلوب باستشعار الهيبة والقدرة، وفي الجوارح بتعظيم حرماته، والوقوف عند حدوده وتشريعاته.

فمن كان الله تعالى عظيمًا في قلبه هاب أن يخالفه، ومن كان الله تعالى عظيمًا في جوارحه ساقها إلى مرضاته، وأمسكها عن امتطاء محظوراته، قال بعض الصالحين: "لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه"[1].

الرب القدير:

والله سبحانه وتعالى ذو القدرة التامة، والقوة الكاملة، فلا ضعفَ ولا عجز يعتري قوة الله تعالى وقدرته.

قال تعالى: ((وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا))[فاطر:٤٤].

سبحانه ربنا العظيم، قدَرَ فخلق، وقدر فرزق، وقدر فعلم سرَّ عباده ونجواهم، ومحياهم ومماتهم، ومنقلبهم ومثواهم، وبعثهم من كل مكان تفرقت فيه أجسادهم. ((أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))[البقرة:١٤٨].

فما قدرة القادرين أمام قدرة رب العالمين، وما قوة الأقوياء إزاء قوة القوي المتين!.

فأي مخلوق ظلم بقدرته فليتذكر أن الله أقدر على محاسبته، ومن غلب بقوته فليعلم أن الله أقوى على معاقبته، واسترداد الحق منه.

الرب الخالق:

والله تبارك وتعالى هو الذي خلق فأبدع خلقه، وبرأ كل شيء وصوّره، فهو الخالق الخلاق البارئ المصور، بديع السماوات والأرض. فمن تأمل في خلقه عرف إبداع صنعه، وجميل فعله، وحسن تكوينه.

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك[2]

فتأمل أيها المخلوق في الكون الفسيح؛ لتقرأ إبداع الخالق، بل تأمل في نفسك؛ لترى عجيب صنع الباري فيك. قال تعالى: ((يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ))[الانفطار:٦]^((الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ))[الانفطار:٧]^((فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ))[الانفطار:٨].

---

١ إحياء علوم الدين (٤/ ٤٢٥).

٢ الأبيات منسوبة لأبي نواس، موسوعة الشعر الإسلامي (١٣٥/ ٢).

الرب الرزاق:

والله جل وعلا هو الرزاق الكريم الذي تكفل برزق عباده وكفايتهم، فلا رازق لهم سواه، فقد رزق الجن والإنس، والمسلم والكافر، والطائع والعاصي، والصغير والكبير، وكل كائن تدب فيه حياة، فوسع رزقه جميع خلقه، بكرم لا يحد، وعطاء لا يعد، حتى رزق الجنين إلى بطن أمه، والحشرة إلى باطن الصخرة، فلم ينس رزق أحد خلقه في أي مكان صار إليه خلقه.

قال تعالى: ((وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ))[هود:٦]، وقال: ((وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ))[العنكبوت:٦٠].

الرب العليم:

والله تعالى عليم علمًا مطلقًا لا يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان، علم ما كان وما يكون، وما سيكون، وسوف يكون، لو كان كيف يكون.

فأين يغيب العبد عن علم علام الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، الذي أحاط علمه بجميع الأشياء ظاهرها وباطنها، دقيقها وجليلها. فكيف تعصيه نفس عاقلة تعتقد أنه يعلم حالها، ويرى أفعالها؟!. ((وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ))[الأنعام:٥٩].

الرب الحكيم:

والله جل جلاله هو الحكيم الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب، الذي أتقن كل شيء وجانبه العبث والقصور، والخلل والزلل، خلق كل شيء فأحسن خلقه، وقدر كل شيء فأحسن تقديره. فله الصنع الحكيم، والتقدير الحسن، في أحكامه الكونية والقدرية، وأحكامه الدينية والشرعية. ((وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ))[المائدة:٥٠].

فلا يحصل في خلقه ما لا يريده كونًا؛ لأنه الحكيم، ولا تغلب إرادةُ غيره إرادته؛ لأنه المدبر القادر العظيم. ((أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ))[الأعراف:٥٤].

الرب الحليم:

والله سبحانه وتعالى الحليم الذي لا يعاجل بالعقوبة من عصاه؛ لعل العاصي أن يتوب، وإليه يؤوب.

((وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا))[فاطر:٤٥]. لقد وسع حلمه تعالى المذنبين والكافرين والظالمين والمسرفين عن قدرة وعز، لا عن ضعف وعجز، فأمهلهم حلمًا منه. فيا ويل من أُسدل عليه حلم الله و لم يرجع إليه، وتأخرت عقوبته و لم يقبل عليه، وسبحان ربنا من حليم كريم، حلم عن علم وقدرة، وعزة وقوة، وكرم وغنى، وعفو ورحمة.

الرب الرحمن الرحيم:

والله تبارك وتعالى رحمن رحيم، أرحم بالعبد من نفسه، وأرحم به من أبيه وأمه، فمن رحمته به: أمره ونهاه؛ لئلا يصل إلى ما لا يرضاه.

ومن رحمته: أكرمه وأعطاه، وأطعمه وسقاه، وشفاه وعافاه، وكساه وآواه. ومن رحمته: سخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه؛ ليستعين بذلك على عبادته، ويصل به إلى راحته وسعادته.

ومن رحمته به: أنه أمهله إن عصى، وفتح له باب التوبة إن تاب بعد أن هفا، وفرح بقدومه عليه منيبًا،

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سبي فإذا امرأة من السبي قد تحلّب ثديها تسقي إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: (أترون هذه طارحة ولدها في النار)؟. قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: (لله أرحم بعباده من هذه بولدها)[1].

---

١ متفق عليه.

استحقاق الله تبارك وتعالى للعبادة:

إن ربنا تعالى لما بلغ غاية الكمال فيما تقدم من الصفات وفي غيرها من نعوت جلاله؛ كان مستحقًا للعبادة التي لا يشاركه فيها أحد من خلقه. فالله تعالى هو المعبود الحق في أرضه وسمائه، لا معبود بحق سواه،((وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ))[الزخرف:٨٤].

فبينه وبين عباده حبل العبادة فمن وصله فأحسن فقد أخذ بأسباب النجاة، وأمن الخسارة في دنياه وأخراه، ومن ترك الأخذ به فقدَ سعادةَ الحياة، وربح الهلاك والندامة عند لقاء الله.

فمعبودنا الله وحده لا شريك له سجودُنا وركوعنا، وخشوعنا وخضوعنا، ومنه تعالى رغَبنا ورهبنا، ونيلُ حاجاتنا وغاياتنا، وعليه سبحانه توكلنا واعتمادنا، وصلاح أمرنا في دنيانا وأخرانا، وبه جل وعلا وجودنا وخَلقنا، وحياتنا ومماتنا، وبعثنا بعد موتنا من قبورنا، وإليه وحده تعالى نتوجه برجائنا ودعائنا، وقصدنا في جميع أمورنا.

إليك وإلا لا تشد الركائب ومنك وإلا فالمؤمل خائب
وفيك وإلا فالغرام مضيع وعنك وإلا فالمحدث كاذب[1]

يا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فيمَا أُؤمّلُهُ وَمَنْ أعُوذُ بِهِ مِمّا أُحاذِرُهُ
لا يَجْبُرُ النّاسُ عَظْماً أنْتَ كاسِرُهُ وَلا يَهيضُونَ عَظْماً أنتَ جابِرُهُ[2]

اللذة العظمى:

ما استقر في قلب الإنسان شيء أعظم من تعظيم الله وتوحيده، وتقديسه وتمجيده، واليقين بأن كل شيء بيده، وأن الأمر كله إليه أوله وآخره، حلوه ومره. ولا تلذذ القلب بشيء ألذ من محبة الله تعالى، والشوق إلى لقائه، واستشعار قربه ومعيته، وعونه وحفظه، ولا تفكر العقل في شيء أحسن من التفكر في آياته وآلائه، وأفعاله وتقديراته، وحكمته في تشريعاته ومخلوقاته، ولا سمعت الأذن أحلى من خطابه، وآياته كتابه، والحديث عنه

١ البيتان لأبي محمد الأندلسي القحطاني، موسوعة الشعر الإسلامي (١٣٥/ ٢).

٢ البيتان للمتنبي، شرح ديوان المتنبي (١/ ٧٦).

وعن صفاته، ولا نطقت اللسان بشيء أعظم ولا ألذ من اسمه، ومن ذكره وشكره، والثناء عليه، ولا نظرت العين إلى شيء أحسن من النظر إليه، ورؤية إبداع مخلوقاته، والتأمل في آياته. عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم ؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار، قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل)[1].

كم يتقرب ربنا الكريم إلى عباده بنعمه وآلائه–وهو الغني عنهم–، وهم يبتعدون عنه بمعصيته ومخالفته–وهم الفقراء إليه!. ففضله على عباده واصل، وخيره إليهم نازل، وكرمه إليهم ممتد، وعطاؤه لهم لا يُعد. فأين التقوى منهم والشكر، والثناء وحسن الذكر، وكل ذلك عائد لهم بالخير والظفر؟.

جائزة الملك:

فمن اتقى وشكر، وتعبد لله وصبر، وتعلق به فقد فاز فوزاً عظيمًا، فما خاب من كان الله قصده وناحيته، وما ضعف من كان الله قوته، ولا عجز من كان الله قدرته، وما تاه من كان الله وجهته، وما زاغ من كان الله غايته، وما افتقر من كان الله غناه، وما ذل من كان الله مولاه، وما ضل من كان الله هداه، وما هُزم من كان الله ناصره، ولا كُسر من كان الله جابره.

إن ما عند الله خير وأبقى، وما عند غيره يذهب ويفنى، فمن الله الكرم والعطاء، وبالله الكفاية والاستغناء، وإلى الله التوجه والالتجاء، وعلى الله اعتماد القلوب، وبه حسن الرجاء إذا دهمت الكروب. فيا أيها الإنسان، إنك تجد عند الله أمنَك عند خوفك، وقوتك عند ضعفك، وسعتك عند ضيقك، وسرورك عند كدرك، ومطالبك عند حرمان الناس لك، فلماذا تلتفت إلى المخلوقين وعندك رب العالمين؟!، قال الله في الحديث القدسي: (يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي، كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم)[2]. وفي الحديث القدسي الآخر: (يا ابن آدم، تفرّغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإن لا تفعل ملأت يديك شغلاً، و لم أسد فقرك)[3].

فسبحان ربي العظيم عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، وسبحانه عدد ما ذكره الذاكرون، وعدد ما غفل عن ذكره الغافلون، وسبحانه وبحمده، لا نحصي ثناء عليه، لا إله إلا هو الحي القيوم الذي لا يموت وكل شيء سواه ذائق الموت. جل جلاله خلق فسوى، وقدر فهدى، إليه المنتهى، أضحك وأبكى، أمات وأحيا، خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى، وإليه الرجعى، وعليه النشأة الأخرى.

---

١ متفق عليه.

٢ رواه مسلم.

٣ رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان، وهو صحيح.

((هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ))[الحشر:٢٢]^
((هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ))[الحشر:٢٣]^((هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ))[الحشر:٢٤].

الحياة مع الله تعالى:

إن الحياة مع الله تعالى تعظيماً وتوحيدًا، وتعبداً وتقربًا، ومحبة وانقياداً، وعلمًا ويقيناً؛ هي الراحة والسعادة، والشرف والسيادة.

فمن عاش مع الله تعالى عبداً أبصر الحياة مَلِكًا، ومن عاش مع الله تعالى ذليلاً أبصر الحياة عزيزا، ومن عاش مع الله طائعًا ألفى الحياة مشرقة، فرأى من خلالها أعلام النجاة ترفرف أمام عينيه، وتسارع إليه ، وتهبه نسيم السعادة الجميل، والظل الوارف الظليل؛ لأن العيش في ظل معرفة الله تنقشع فيه سحائب الغموم، وتتبدد عنه ظلمات الهموم، وتتسع فيه الحياة مهما ضاقت، وتخف الأمراض مهما ثقلت، وتبتهج النفوس مهما تكدرت، وتكبر الآمال مهما قُصفت، وتقرب الحاجات مهما تباعدت، وتضعف المخاوف مهما قويت، وتشرق آفاق الأيام مهما دجت.

فإذا فارق الإنسان دنياه صائراً إلى أخراه وقد عاش حياته الدنيا مؤمنًا صالحًا فنعم عقبى الدار، وحبذا الزاد الذي جُمع لديه، والمصير الذي آل إليه.

فإنه حينئذ سينتقل إلى لقاء من أحبه وعبده و لم يره انتقالَ الحبيب إلى حبيبه، وسينتقل من دار التعب والعناء، إلى دار الراحة والنعماء، وإلى جنةِ الله التي هي أفضل مأوى، وإلى رؤية الله التي هي غاية المنى، وسينتقل من شوقه إلى أحبابه الذين فارقهم أو فارقوه إلى دار تجمعه بهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ومرض أعرابي فقيل له: "إنك تموت، فقال: أين يذهب بي؟ قالوا: إلى الله، قال: فما كراهتي أن أذهب إلى من لا يُرى الخير إلا منه"[١].

إلهانا ومولانا:

فيا رب! كم أنعمت! فمن يحصي نعمك، وكم أكرمت، فمن يقدر على أن يعد كرمك!. من ذكرك ذكرته، ومن شكرك شكرته، ومن استنصرك نصرته، ومن سألك أعطيته، ومن استرزقك رزقته، ومن استشفاك شفيته، ومن استرحمك رحمته، ومن استغاث بك أغثته، ومن تولاّك تولّيته، ومن أقبل عليك تائبًا قبلته.

لو عبدك العابدون الليل والنهار، عدد قطرات الأمطار، وورق الأشجار، وحبات الرمال، ومثاقيل الجبال، لما بلغوا معشار ما تستحقه من العبادة والشكر، فإذا قال الملائكة المعصومون الذين يعبدون الله ويسبحونه الليل والنهار لا يفترون : (سبحانك ما عبدناك حق عبادتك)١، فماذا نحن الخطّاؤون قائلون!.

---

١ إحياء علوم الدين (٤/ ٤٦٦).

التكليف:

وبعد هذا، ماذا نحن عاملون، وعلامَ عازمون؟.

أفلا نغسل قلوبنا من جميع أدرانها التي تخالف عظمة الله ومحبته، وتوحيده وتقديسه؛ فيكون الله أعظم شيء في قلوبنا، وأحب شيء إلى نفوسنا حقًا وصدقًا، لا كذبًا ودعوى، وبرهان ذلك صلاح أعمالنا وأقوالنا ظاهراً وباطنًا.

أفلا نعمر جوارحنا بكل طاعة أُمرنا بها، ونجنبها كل معصية نهينا عنها.

أفلا نشتاق إلى لقاء الله، والظفر بقربه في دار كرامته.

ألا فلنجهز زاد الرحلة السعيدة ليوصلنا إلى تلك الغايات الحميدة، فما بين المؤمن وذلك الموعود الحق الصادق إلا أن تخرج الأرواح لتلقى بعدها الأفراح، وترمي عنها دنيا الآلام والأتراح، ((فَبَشِّرْ عِبَادِ))[الزمر:١٧]^[1]((الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ))[الزمر:١٨].

---

١ رواه الحاكم، وهو صحيح.

الحياة في ظل الاهتداء بكتاب الله

جلال الكلمة:

إن الكلمة بقيتْ وستبقى سبيلاً لتعديل مسار الناس، من الشر إلى الخير، أو من الخير إلى الشر، وكلما كانت أكثر امتلاكًا لأدوات التأثير كانت أسرع وصولاً، وسيطرة على الأقوال والأعمال.

وذلك أن الخطاب والبيان وَقود للعقول والقلوب التي تنشأ عنها حركات الجوارح وسكونها.

ومن هذا بعث الله تعالى الأنبياء والرسل-عليهم الصلاة والسلام- وأيّدهم بوحي منه؛ حتى يخاطبوا الناس به مبشرين ومنذرين. قال تعالى: ((يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ))[الأعراف:٣٥].

ومن أولئك الرسل الكرام: رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي أنزل الله تعالى عليه القرآن الكريم، قال تعالى: ((وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ))[النحل:٤٤].

اتصال السماء بالأرض:

ففي ليلة قمراء اتّشحت بها آفاق غار حراء هبط رسول السماء إلى رسول الأرض سيد الأنبياء محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، فجاءه بطلائع النور الذي سينير لأهل الأرض طريقهم إلى ربهم تبارك وتعالى، حاملاً معه قول الله تعالى: ((اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ))[العلق:١]^((خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ))[العلق:٢]^((اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ))[العلق:٣]^((الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ))[العلق:٤]^((عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ))[العلق:٥].

لقد حمل رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم في صدره تلك الكلمات المشرقة فجاء بها الناس نبيًا من عند الله تعالى؛ ليضيء بها الكون المتلفع بالظلمات المتراكمة، ((قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ))[المائدة:١٥]((يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))[المائدة:١٦].

عظمة القرآن:

إن هذا القرآن العظيم الذي بين أيدينا هو كلام الله تعالى، أصدقُ قيلا، وأحسنُ حديثا، وأكمل نصحا، وأهدى طريقا، وأتم برهانًا وحجة، وأفصح بيانًا ومحجّة، ((لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ))[فصلت:٤٢].

هو كلام الله تعالى العليم الخبير، البصير القدير، ليس ككلام البشر الذي يعتريه النقص والقصور، والعي والضعف، ويختلط فيه الحق بالباطل، والصدق بالكذب.

إن هذا الكتاب الكريم قد نزل بأفصح لسان، وأتم بيان، في عصر بلغت فيه العربية أوج عزها، وسنام مجدها، فأخرس الفصحاء، وأعجز البلغاء، وأعيا الشعراء، وأسكت العلماء. حتى إن منصفي فصحائهم شهدوا له بالقوة والفخامة، والإعجاز والبلاغة التي لا تُسبق، ولا يمكن أن تُلحق. قال الوليد بن المغيرة: "والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه يعلو وما يُعلى"[١].

وسمع أعرابي رجلاً يقرأ : ((فاصدع بما تؤمر)) فسجد ،وقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام، وسمع آخر رجلاً يقرأ : ((فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا)) فقال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الكلام"[٢].

كلامٌ ليس يشبهه كلام وقولٌ فاقَ حقًا كلَّ قولِ
ولو صاغَ الورى أرقى بيانٍ لَمالَ إلى الفهاهةِ كلَّ ميل

وصدق الله تعالى: ((قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا))[الإسراء:٨٨].

---

١ الكشف والبيان، للثعلبي (١٠/ ٧٢).

٢ النكت والعيون، للماوردي(١/ ٣٠).

الكتاب المعجز:

لقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم كتابًا خالداً؛ ليبقى معجزة قائمة إلى نهاية الدهر، وهو بهذا الإعجاز سبيل هداية وإرشاد مع تغير الزمان والمكان والأجيال، فكل إنسان له طريقه في التأثر به وقبوله؛ ولهذا تعددت وجوه إعجازه، وطرق هدايته للنفوس.

فمن ذلك: أنه معجز بأسلوبه وفصاحته، وبيانه وبلاغته، وجودة سبكه، وحسن تأليفه، وهو معجز كذلك بإخباره عن المغيبات الماضية والمستقبلية، وهو معجز بقوة جذبه، وأخذه بمجامع العقول والقلوب، وهو معجز باشتماله على سبل صلاح الدنيا والدين.

فمن أجل ذلك بقي كتابَ هداية لكل البشر على اختلافهم، ويدل على هذا: أن بعض المقبلين من الكفر إلى الإسلام، ومن المعاصي إلى الطاعات يذكرون أن سبب رجوعهم إلى الله تعالى آيةٌ أو آيات قرأوها أو سمعوها، فمن ذلك: أن الفضيل بن عياض كان سبب توبته قبل أن يصير إمامًا في العبادة والعلم: أنه كان في طريقه إلى معصية فسمع قارئًا يقرأ قوله تعالى: ((أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ))[الحديد:١٦]، فرجع وتاب توبة نصوحًا، وصار علمًا من أعلام المسلمين١. وأسلم طبيب غربي عندما فُسِّر له قوله تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا))[النساء:٥٦]، والأمثلة على ذلك كثيرة.

نور الحياة:

إن من رحمة الله بنا: أن أنزل هذا الكتاب العظيم؛ ليكون نور حياتنا، وضياء طريقنا حتى نصل إلى الله تعالى من سفر الدنيا، ولكنه لا يكون كذلك إلا بالإيمان به، وقراءته وتدبره، وفهمه وتأمله، والعمل به، والاحتكام إليه. قال تعالى: ((كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ))[ص:٢٩]، وقال: ((أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا))[محمد:٢٤]، وقال:((أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا))[النساء:٨٢]، وقال: ((اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ

١ الكشف والبيان، للثعلبي (٩/ ٢٤٢).

جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ))[الزمر:٢٣]، وقال: ((إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ))[الأنفال:٢].

الحياة مع القرآن:

إن المسلم الموفق هو الذي يعمر حياته بالقرآن الكريم، فيصير تحركها مبنيًا على توجيهاته، وسكونها قائماً على هداياته، فمنه ينطلق، وإليه يعود. لأن هذا الكتاب العظيم هو خطاب الملك سبحانه لمملوكيه، ودستور الخالق لخلقه، ونداء الرب لعباده، وهو خطاب الرحيم الكريم، الذي رحم عباده بإنزاله عليهم، وعلم ما يصلح أحوالهم العاجلة والآجلة فأودعه فيه.

فلذلك صار القانونَ السماوي الشامل، والدستورَ الرباني الكامل، والحَكم الفصل العادل لجميع ما يحتاجه البشر في طريقهم إلى الله تعالى.

فبه يُوحّد الله، وبه يعبد، وبه يصلى ويزكى المال، وبه يصام وبه يحج البيت، وبه يجاهد في سبيل الله، وبه يُحكم في قضايا الأموال والأعراض والدماء والجنايات، وبه يتبين الحلال من الحرام في البيع والشراء وسائر المعاملات؛ كالمعاملات الأسرية، والعلاقات الدولية، وغير ذلك، مع بيان سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن هذا يتبين لنا أن جميع مجالات حياتنا لا تستقر ولا تصلح إلا بالتمسك بالقرآن الكريم تمسكًا صادقًا يبرهن عن صدق ذلك واقع الأفعال والأقوال. فالحياة الدينية إذا بنيت على أساس من القرآن بناء صحيحًا قائماً على قلب خاضع، ودليل ناصع أثمرت صحة العقيدة، وسلامة الفكر، وحسن العمل والسلوك، وصواب التوجه والمعاملة مع الله تعالى، ومع النفس، ومع الخلق. والحياة السياسية إذا قامت على قواعد القرآن، ورسمت على منهاجه بحق وصدق أورثت راحة الراعي والرعية، واستقرار الشعوب الإسلامية، ورقي الحياة في جوانبها المختلفة. والحياة العسكرية إذا أُنشئت حسب توجيهات القرآن، وتوجّهت على وفق أوامر القرآن أنتجت عزَّ المسلمين، واستقرارهم، وأمنهم واطمئنانهم.

والحياة الاقتصادية إذا قامت على مبادئ القرآن في الكسب والإنفاق، والإيراد والإصدار أثمرت بركة في الرزق، ونماء في المال، وغنى في المجتمع، وازدهاراً اقتصاديًا، وتحصنًا من الجوائح والأزمات المالية، واستقلالاً عن

التبعية لأعداء الأمة المحمدية. والحياة الاجتماعية إذا جرت على نهج القرآن عاش المسلمون حياة سعيدة، يحفها العدل والأمان، والطهر والنقاء. والحياة التربوية والعلمية إذا بنيت على أسس القرآن أخرجت أجيالاً متألقة علميًا، نافعة مجتمعيًا، مشرقة خلقيًا، بانية غير هادمة، صافية العقول غير مشوبة.

حلم عسى أن يتحقق:

إن هذا الواقع المشرق في مجالات الحياة السابقة هو حلم كل مسلم صادق، يريد أن يراه واقعًا في جميع بلاد المسلمين؛ لأنه يحب أن يكون القرآن هو حاكمَ الحياة كلها؛ لأن الله تعالى أنزله لذلك، و لم ينزله ليُقرأ لحظات معينة، ثم يُعاد إلى الرفوف. إن حال الأمة الإسلامية في زمان انحطاطها بسبب بعدها عن هدي القرآن، وبحثها عن حلول مشكلاتها في كل جهة أرضية؛ كحال الغريق الذي يطلب أيدي المنقذين، ولديه قارب نجاة فيأبى ركوبه، يناديه المنادي: اركب معنا، فيقول: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، ولكنه لم يجد جبلاً، ولا ركب قاربًا فكان من المغرقين، أو كحال من ضل عن الطريق ومعه الدليل غير أنه لا يلتفت إليه، قال تعالى: ((مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ))[الجمعة:٥]، أو كحال الظمآن والماء فوق ظهره محمول.

ومن العجائب والعجائب جَمَّةٌ قُرْبُ السبيل وما إليه وصولُ
كالعِيْسِ في البيداء يقتلها الظما والماءُ فوق ظهورها محمول

ثمرة الحياة مع القرآن:

إن المسلم الحريص على النجاة الصادق في حب الله هو من يصبغ حياته كلها بصبغة القرآن الكريم، فيظهر أثره على اعتقاده، وعلى عمله، وعلى أخلاقه، وعلى مخبره ومظهره، فهو طويل الملازمة للتلاوة، كثير التدبر والتفكر فيه، يقرأه فيتأثر بآياته فيتجه عقبها إلى ميدان العمل بها، وليس كحال الذي يقرأ غير مبال بالعمل بما قرأ، وكأن القرآن يخاطب غيره، فعلاقته بالقرآن علاقة قراءة تنتهي بانتهائها فحسب!.

كما أنه من عمر حياته بالقرآن بحق فإنه سيحيا حياة روحية راقية، بحيث تحلِّق روحه في آفاق الفضائل، وتسارع إليها، وتنأى عن منحدرات الرذائل، وتكره قربانها، وترسم على جوارحه صور الصلاح حتى يقبل على فعل ما يُحمد، وترك ما يذم. وقد تمثل الحياة القرآنية بجميع فصولها: رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، فكان خُلقه القرآن، كأنه قرآن يمشي بين الناس.

إن الحياة الحقيقة هي الحياة القرآنية، ((أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))[الأنعام:١٢٢]، فلا سعادة حقيقة في الحياة إلا بعمارتها بكتاب الله تعالى، فمن جرّد حياته منه تخبّط في أودية الشقاء، وظلمات الحيرة، وتاه في فلوات النكد والضياع. والطريقة الصحيحة لجعل الحياة حياة قرآنية صادقة: أن يكون القرآن هو منطلق الإنسان في تصرفاته، وهو المرجع الذي يحتكم إليه في أموره، وهو المآل الذي ينتهي إليه لكشف همومه، وتفريج كروبه، وإخراجه من رحم مشكلاته وآلامه. ومن رجع إليه رجوعًا صادقًا وجده أنيسه في الوحشة، ورفيقه في الوحدة، وسلوته في الحزن، وفاتحَ ما انغلق من أبوابه، وحلاَّل ما هجم من المعضلات على حياته.

هو منهلٌ عذبٌ يسيل معينه بفراتِ ماء للحياة نميرِ
هو حبلُ من يرجو النجاةَ من الردى ويدُ الأمان من اغتيالِ شرور
حصن من الأعداء ما خانَ الذي يأوي إليه لنجدةٍ وسرور
باقٍ على مر الدهور منارةً تهدي الورى دومًا لخيرِ مصير

في ظل الحياة القرآنية يغتسل القلب من أدرانه، ويُطلق من سجون أحزانه، وتترل السعادة فيه، وتشرق جميع نواحيه، وفي ظل الحياة القرآنية يتحرر العقل من غثاء الأفكار المسمومة، ويسبح في آفاق صفاء المعقولات المحمودة. وفي ظل الحياة القرآنية تنطق لسان صاحبها بكل قول يحبه الله ويرضاه، وتسكت عن كل قول يسخطه ويأباه، وفي ظل الحياة القرآنية تنظر العين إلى ما أبيح لها، وتكف عن النظر إلى ما حرم عليها، وفي ظل الحياة القرآنية تنصت الأذن إلى ما يفيدها في صلاح أمرها، وتصم عن استماع ما يوصل إلى ضررها، وفي ظل الحياة القرآنية تعمل اليد كل عمل عند الله محمود، وتكف عن كل فعل في الشرع مردود، وفي ظل الحياة القرآنية تنطلق الرجل إلى ما يمدح الله المسير إليه، وتقف عن كل خطوة تردي صاحبها في المهالك، وتسلك به معوجّات المسالك.

التكليف:

وبعد هذا، فهل من عودة صادقة إلى نور القرآن؛ فإن الشرود عنه يورث ظلمات بعضها فوق بعض، ومن كانت طريقه خاليةً من نور القرآن لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور، وهل من عودة صادقة إلى هداية القرآن، فمن استهدى به فقد هُدي إلى صراط مستقيم، وهل من عودة صحيحة إلى جعل القرآن الكريم هو دستور الحياة الذي يسيّرها، ويقضي فيها؛ فإنه نعم الدليل إلى العيش الجميل.

فيا من لها عن القرآن منشغلاً بالدنيا أقبِلْ على كتاب ربك؛ فإن صلاح دنياك ودينك فيه، ويا من هجر القرآن فصار لا يعرفه إلا في رمضان، أو في يوم الجمعة، أو في لحظات الفراغ ارجع إلى ملازمة التلاوة المتدبرة؛ فإنها منجم حسنات، ومحرقة خطيئات، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: (آلم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف) (١). ويا من يقرأ القرآن من غير تفكر اعلم أن قراءتك هذه قليلة الفائدة؛ لأن القرآن لا يؤثر في النفوس والأعمال إلا بتدبره وتأمله، وتفهُّمه وتعقُّله. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (اقرأ علي). قلت: آقرأ عليك أنزل؟! قال: (فإني أحب أن أسمعه من غيري). فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت: { فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا }، قال: (أمسك). فإذا عيناه تذرفان (٢).

ويا من يقرأ القرآن ولا يُتبع قراءته بعمل تُبْ من هذا التفريط، واقرأ القرآن بنية العمل قائلاً: يا ربنا، سمعنا قولك، وأطعنا أمرك. ويا من يقرأ القرآن ومعاملته لأهل بيته، ولأقاربه، ولجيرانه، وللناس الآخرين تخالف هدي القرآن راجعْ قراءتك؛ فإن فيها خللاً. ويا من يقرأ القرآن ويتحاكم إلى ما يضاده ويعارضه اسمع قول ربك في القرآن يقول: ((فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا))[النساء:٥٩]. فطوبى لمسلم جعل القرآن له دليلا، وما ارتضى لحياته بغيره بديلا، وطوبى لمسلم لازم تلاوة كتاب ربه، ورافق تلاوتَه حضورُ قلبه، وصار القرآن سميرَه وجليسه، وصاحبه وأنيسه، وطوبى لمسلم ظهرت عليه آثار القرآن، في أقواله وأفعاله، فإن قال فلا يخالف قولُه آياتِ الكتاب، وإن فعل كانت

---

(١) رواه الترمذي، وهو صحيح.

(٢) متفق عليه.

أفعاله موافقةً لما جاء به الكتاب. ((إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا))[الإسراء:٩]^((وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا))[الإسراء:١٠].

الحياة في ظل اتباع رسول الله، صلى الله عليه وسلم

الحديث ذو شجون:

مِن أين أبتدئ الحديثَ عن الهدى وبأي لفظٍ أمدحنَّ محمدا
تتسابقُ الكلماتُ في أفواهنا وسطورِنا أيٌّ يفوز بأحمدا
رجُل سما بخصاله وبهديه أكرمْ به هديًا أنافَ ومحتدا
صلوا عليه وسلموا لا تبخلوا إن الصلاة على النبيِّ من الهدى

إن الحديث عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والحياةِ التي ينبغي أن نحياها تحت ظلال هديه حديثٌ ذو شجون، والكلام عن ذلك متشعب ذو فنون. ففي حياته العطرة، وسيرته النضرة ما يجعل العظمةَ الإنسانية تقف حائرة وهي تشاهد السمو الباذخ، والثبات الراسخ في المواقف والأحوال، والأقوال والأفعال، وفيها ما يجعل القلوب الصافية تميل إليه، والعقول المنصفة تسلِّم له، فلا يبقى للكبرياء صدود وهي ترى جوانب حياته- عليه الصلاة والسلام- كلها تتربع على هام العظمة والسموق.

شروق الشمس:

في حقبة من الزمان بلغ انحراف البشرية أقصى غاية له، حيث ارتضى الجم الغفير من الناس عبادة أصنام لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فقبلتها عقولهم، ومالت إليها قلوبهم، وتعلقت بها آمالهم، ورُجي بها زوالُ آلامهم. وفي هذه الأجواء المظلمة، والأحوال القاتمة ربّى الله على يديه، وحرس بعينيه نوراً سيبعثه ليبدد الظلمات، ويبدل تلك الأحوال القاتمات، فكان الاصطفاء لخيرة خلق الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

قمْ فأنذر:

لقد اختار الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم لحمل الرسالة الخاتمة التامة الكاملة، وكمّل حاملها بجميل الصفات، وأفضل السمات. فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتح مغالق القلوب بنور دعوته العظيمة، وحسن طريقته الحكيمة. فاهتدى به أقوام، وأعراض عنه آخرون، ولقي ما لقي من المعرضين من الصدود والعداء، والإساءة والأذى، فطمر ذلك النفورَ تحت قدميه، واستمر يطرق القلوب داعيًا القريب والبعيد، والصديق الموافق، والعدو المفارق، والصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى.

فتكوّن بأولئك المؤمنين الأولين طليعةُ الإسلام الأولى، وقاعدة صرحه الكبرى. فلما طفق نور الإسلام يهتك كلَّ يوم بعضَ ستور الظلام، ويفتح أمام عيني مكة آفاقًا مشرقة، وأبوابًا كانت من قبل مغلقة؛ خرج طغاة مكة عن مكنون العداء إلى فعله على أجساد المؤمنين الضعفاء، وإيصاله إلى أسماع المؤمنين الأقوياء. حتى طالت سنوات الابتلاء، وضُيِّق الخناق على نور السماء أن يعم الأرجاء، فأذن الله تعالى لرسوله الكريم بترك مكة إلى دار أخرى أفسحَ صدراً، وألين قلبًا، وأخصب أرضًا، وأصلح لبناء صرح الإسلام المشيد.

فكانت الهجرة إلى طيبة الطيبة، أرضِ الحب والإيمان، والنصرة والإذعان. وهناك هناك ترعرعت شجرة الإسلام وبسقت، وعلت في سماء الحق وارتفعت، ومن هناك أنجد دين الحق وأتهم، وشرَّق وغرَّب، واستمر وسيستمر على ذلك، هذا وعد الله على لسانه رسوله الأمين: (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر) .(١)

الرسول القدوة:

لقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرَه الذي قسمه له وهالاتُ العظمة تحيط به من كل جانب قبل البعثة وبعدها. فكان مهيبَ الجانب، عاليَ القدر، مبجلاً معظّماً، مكرَّمًا مفخّمًا. فقوله أحسن الأقوال وأبهاها، وفعله أفضل الأفعال وأزكاها، وحاله أكمل الأحوال وأوفاها، وسيرته أنصع السير وأنقاها. يبذل المعروف، ويغيث الملهوف، ويحسن ما وجد للإحسان موضعًا، ويعين ما رأى لعونه منتجعًا. من رآه أحبه لمرآه، فكيف لو جالسه وآخاه، حتى تملّك حبُّه القلوب، وبهرت عظمته العيون، ففدّوه بالآباء والأمهات، وبالنفس وبالنفيس في الحياة. وتعزّوا بسلامته عن كل فقيد، وتسلّوا بقربه عن كل بعيد.

"مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأُحد، فلما نُعُوا لها قالت: فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: كل مصيبة بعدك جلل، تريد صغيرة"[٢].

---

(١) رواه أحمد والبيهقي والحاكم، وهو صحيح.

٢ السيرة النبوية، لابن هشام (٤/ ٥٠).

السيرة العطرة:

إن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم خرج من الدنيا وما عاش ثراءها وغناها، ولا عافس غفلتها وملهياتها، ولا خادن صلفها وكبرياءها، ولا نافس أهلها في زهرتها ومفاتنها.

بل عاش في دنياه كثير العبادة، دائم الزهادة، ليله ونهاره، سره وعلنه، ميممًا وجهه نحو الآخرة، عاملاً بقول الله تعالى: ((وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى))[طه:١٣١]. وأخذ من الدنيا ما قل وكفى، وترك ما كثر وألهى، وصبر على المشقات والشدائد، وواجه المعضلات والمكائد، وتحمّل من الأهوال ما لا تنوء بحمله الجبال. مع تواضعه الجم، ولينه العم، وبسمته المشرقة في الوجوه، ويده المطلقه بالكرم في محمود الوجوه، وحرصِه الكبير على تيسير الدين لأمته، وإزالة المشقة عنهم في جميع أمره، وهذا خلق لهم دائم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ((لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ))[التوبة:١٢٨]. وفي يوم القيامة يقال لنبينا عليه الصلاة والسلام-وهو ساجد تحت العرش-: (يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، قال: فأرفع رأسي فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقال: يا محمد، أدخلِ الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهو شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب)١.

وداع الحياة والأحياء:

بقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمة نبيًا رسولاً ثلاثًا وعشرين سنة حتى أدى أمانة ربه، وأتم بناء الدين والدنيا للأمة، وأوكله إلى جيل رباه على يده ليحمل البلاغ عنه من بعده إلى أرجاء المعمورة، فكان ذلك.

ثم إن الله تعالى أنزل عليه -صلى الله عليه وسلم- آياتٍ كريمات تلوِّح بوداع الحياة والأحياء، وتسليم النفس إلى رب السماء، فقال تعالى: ((الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا))[المائدة:٣]، وقال: ((إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ))[النصر:١]^((وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا))[النصر:٢]^((فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا))[النصر:٣].

---

١ متفق عليه.

وهنا اطمأنت نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطابت لخبر الله ووعده، حتى رضي بالرحيل والانتقال إلى دار المآل. كما أنه لوّح لأصحابه الكرام–من غير تصريح– بدنو الأجل، وقربِ المرتَحَل، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر فقال: (إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده فاختار ما عنده) . فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا . فعجبنا له وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا! فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخيَّر وكان أبو بكر هو أعلمنا به)١. فصعِدت روحه الطاهرة– صلى الله عليه وسلم– إلى بارئها، فانقطع وحي السماء، وسالت العيون بالبكاء، ودمعت الغبراء والخضراء، وتلفعت الآفاق بالظلماء في ذلك الحادث العظيم.

فموت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم المصائب على الأمة؛ لأنه– صلى الله عليه و سلم– كان أَمَنَةً لأمته، فلما "مات أصاب الناس من الفتن والأهواء والأعمال والتغير ما لا يكاد يحصى"٢.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أيها الناس، أيما أحد من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعز بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري؛ فإن أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي)٣.

تركة رسول الله:

لقد مات رسولنا صلى الله عليه وسلم، ولكن تركته مازالت باقية في أمته، وهي دين الإسلام الذي أرسله الله تعالى من أجل نشره، وتثبيت أعمدة بقائه في الأرض. فالقرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى عليه، وسنته الشريفة التي هي أقواله وأفعاله وتقريراته هما ركنا الدين، وهما باقيان ما بقيت الحياة؛ لأن الله تعالى تكفّل بحفظ ذلك. فالقرآن هو المصدر الأول للتشريع الإسلامي، والسنة النبوية الشريفة الصحيحة هي المصدر الثاني، وبهما يقوم الإسلام، وتحصل الحجة على الأنام. قال تعالى: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }[الحشر٧]، وقال: ((قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ

---

١ متفق عليه.

٢ شرح سنن ابن ماجه – السيوطي وآخرون (ص: ١١٥).

٣ رواه ابن ماجه، وهو صحيح.

))[آل عمران:٣٢]^، وقال: ((وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا))[الأحزاب:٣٦]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا أُلفِين أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه)١. " أراد به أصحاب الترفه والدعة الذين لزموا البيوت، و لم يطلبوا بالأسفار من أهله فيقول: أي: في رد ذلك الحديث حيث لا يوافق هواه، أو مذهب إمامه الذي قلده"٢.

ولا يستغنى بالقرآن عن السنة، ولا بالسنة عن القرآن، ولن يفترقا حتى يردا على رسول الله صلى الله عليه وسلم الحوض، ففي القرآن والسنة الصحيحة قيامُ الدين، وحصول العلم والهدى، والوصول إلى الحق المبين، وبقاء الإسلام غضًا طريًا صالحًا لكل زمان ومكان، فهما كجناحي الطائر: فمن تمسك بهما ارتفع ونجا، ومن تركهما أو أحدَهما سقط وهلك.

الحياة مع رسول الله:

إن المؤمن الصادق الذي يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعظِّمه هو من يبني حياته على نهج رسول الله عليه الصلاة والسلام متبعًا مقتديًا. فينقل حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم القولية والعملية إلى واقع حياته القولية والفعلية، فيمتثل أوامره، ويجتنب زواجره.

فاقتداؤه برسول الله صلى الله عليه وسلم هو نوره المتوهج في دروب الحياة المظلمة، ودليله العارف في متاهات الواقع المضلة، وسفينة النجاة في بحار العيش المتلاطمة، ويد الآمال التي تقوده إلى رحاب الحياة المطمئنة. فما أجملَ حياة المسلم إذا عمرها بالاتساء بخير الأنبياء عليه الصلاة والسلام، وأصبحت حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم القولية والعملية التشريعية هي المنبعَ الذي يستقي منه-بعد القرآن- ماءَ الحياة الصالحة، وريَّ العيش السعيد. إن الحياة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحبة والتعظيم، والانقياد والتسليم، والاتباع والامتثال في الأقوال والأعمال والأحوال؛ هي الحياة السعيدة والعيشة الحقيقية الرشيدة، التي تجلب لصاحبها طمأنينة النفس، وانشراح الصدر، وصفاء البال، وصلاح الحال والمآل. فبهذه الحياة يعرف السبيلَ السوي للتعامل الصحيح مع ربه، ومع نبيه، ومع نفسه، ومع خلق خالقه. وبهذه الحياة ينجو من أسر الشهوات، ويُفك من

---

١ رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وهو صحيح.

٢ قاله الخطابي، حاشية السندي على ابن ماجه (١/ ١٢).

قيود الشبهات، ولا تجد الحيرة والشكوك إليه طريقاً، ولا الانحراف عن الجادة إليه سبيلا. وبهذه الحياة يزداد حبًا لله تعالى، وحبًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وحبًا لدينه، وحبًا لمن هم على نهجه ودربه. وبهذه الحياة يزداد شوقًا إلى لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، والظفر برؤيته، وجلاء عينيه بمقابلته، وتشنيف أذنيه بسماع حديثه.

شوقي إليك–رسولَ الله– دفّاقُ فنهرُ حبِّك في الأعماق رقراقُ
لُقياك–يا خيرَ خلقِ الله– أُمنيتي على ضفافِ الرضا والأفْقُ برَّاق
كم للعيون من الإشراق لو نظرتْ لنورِ وجهٍ له الأنوارُ تشتاق
رجاء نفسيَ أن أحظى برؤيته في جنة الخلد فالأشواقُ إحراق

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أشد أمتي لي حبًا ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني بأهله وماله)١. والمعنى: يتمنى الإنسان أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو قدّم فداء لنيل ذلك المطلب أهلَه وماله، إما شوقًا لرسول الله، وإما لشدة وطأة الفتن والمحن.

التكليف:

وبعد هذا فماذا علينا نحو رسولنا صلى الله عليه وسلم؟

هل يكفي أن نقول: إننا من أمة محمد، أو من أتباعه، أو من محبيه، أو من معظميه، و لم نقم بالواجب علينا نحوه صلى الله عليه وسلم ونحو ما جاءنا به؟.

إن واقع الإنسان العملي هو الذي يكشف الصادقين من الكاذبين، والمتبعين من المدّعين.

فمن حق رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا: أن نعظمه التعظيمَ الذي يرضاه الله تعالى، ونجعل له في قلوبنا مكانة عليا لا يزاحمه في تلك المنزلة أحد من البشر، وبرهان هذا التعظيم والتبجيل: أن لا نقدم على شرعه قول أحد من الخلق كائنًا من كان. ومن حقه علينا صلى الله عليه وسلم: أن نحبه حبًا عظيمًا أكثر من حبنا لأنفسنا، وأهلينا وأموالنا؛ فحبه من حب مَن أرسله تبارك وتعالى. قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده، والناس أجمعين)٢.

---

١ رواه مسلم.

٢ متفق عليه.

ودليل الحب الصادق: اتباعه، والعمل بما جاء به، قال تعالى: ((قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ))[آل عمران:٣١]. ومن حقه علينا صلى الله عليه وسلم: أن نغار عليه، وندافع عنه، ونرد عنه شتم الشاتمين، وسخرية الساخرين، فإذا لم ندافع عنه فإن الله تعالى سيهيئ من يدافع.

قصة.. وعبرة:

ذكر ابن حجر في كتابه "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة"١، أن بعض أمراء المغول تنصر، فحضر عنده جماعة من كبار النصارى والمغول، فجعل واحد منهم ينتقص النبي صلى الله عليه وسلم، وهناك كلب صيد مربوط، فلما أكثر من ذلك وثب عليه الكلب فخمشه فخلصوه منه، وقال بعض من حضر: هذا بكلامك في محمد ، فقال: كلا، بل هذا الكلب عزيز النفس، وإني أشير بيدي فظن أني أريد أن أضربه، ثم عاد الرجل إلى ما كان فيه فأطال، فوثب الكلب مرة أخرى فقبض على رقبته فقلعها، فمات من حينه، فأسلم بسبب ذلك نحو أربعين الفًا من المغول.

ومن الواجب علينا نحو رسولنا وقرة عيوننا، وحبيب قلوبنا صلى الله عليه وسلم: العمل بسنته، واتباع هديه، والمنافحة عن دينه وشريعته. ومن الواجب علينا كذلك: أن نرضى بكل ما جاء به، ونسلم لذلك، من غير ردٍّ ولا كراهية. قال تعالى: ((فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا))[النساء:٦٥].

ومن الواجب علينا كذلك: أن نحب من أحب رسول الله، ونبغض من أبغض رسول الله، ونوالي من والى رسول الله، ونعادي من عادى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن حق رسولنا الكريم علينا: أن نكثر من الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم، كما أمرنا الله تعالى بقوله: ((إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا))[الأحزاب:٥٦]. صلى الله عليه وسلم.

وأن نسأل له الوسيلة–وهي منزلة عالية لعبد واحد في الجنة–، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي؛ فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة)٢.

---

١ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٤/ ١٥٣).

٢ رواه مسلم.

الحياة في ظل العمل بالإسلام

رحمة الخالق بخلقه:

لقد ظل الناس قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، متعددي الأديان، متمزقي الكيان، إلا بقايا من الحنفاء، وأهل الكتاب الباقين على الحق من غير تبديل ولا تحريف. فرضي الله لعباده أن يرسل إليهم رسولاً يختم به الرسالة، ويطهر به الأرض من رجس الضلالة، يبعثه بشريعة تكون خاتمة الشرائع لكل المكلفين إنسهم وجنهم، عربهم وعجمهم، فأخرج الله تعالى لذلك نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ((لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ))[آل عمران:١٦٤]. فجاء محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى بدين الإسلام؛ لهداية الأنام، وانتشالهم من عبادة الأوثان والأصنام، وتحريرهم من الرق للمخلوقين، وتعبيدهم لله رب العالمين. فصار الإسلام هو سفينةَ النجاة الوحيدة، وسبيل الحق المنفردة القاصدة، والأفقَ النوراني الموصل إلى الحق المبين، قال تعالى: ((وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ))[آل عمران:٨٥].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت و لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)١.

مفهوم الإسلام:

إن الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم معناه: الاستسلام الكامل، والانقياد التام الشامل لما جاء في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، من غير جحود ولا إنكار، ولا تشكك ولا اعتراض، ولا كراهية ولا امتعاض، ولا اختيارٍ لما وافق الميول والأهواء، أو المصالح والآراء، وطرحُ ما سوى ذلك. قال تعالى: ((فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا))[النساء:٦٥]. ودين الإسلام الحنيف مبني على أوامر يُعمل بها، ونواهٍ يُبتعد عنها، ومعتقدات ترسخ في الضمائر، وأحكام وأخلاق تمتثل حسب توجيه الشرع الحكيم. وله من المصادر المعصومة التي دونت فيها شرائعه؛ لتبقى إلى نهاية الزمان موئلاً للخلق، ومصدراً للحق. وهذه المصادر المعصومة

---

١ رواه مسلم.

هي: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الصحيحة. قال تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا))[النساء:٥٩]. فمن شهد شهادة الحق: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وقام بما توجبه هذه الشهادة من الأعمال الباطنة والظاهرة فهو المسلم، ومن أتى بناقض من نواقض الإسلام الاعتقادية أو القولية أو العملية التي حكم الإسلام بكفر فاعلها فقد أخرج نفسه من دائرة الإسلام.

عظمة الإسلام:

إن دين الإسلام دين معصوم من الخطأ والزلل، والقصور والخلل؛ لأنه آتٍ من عند الله تعالى، وليس من عند البشر، ((وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا))[النساء:٨٢]. وهو دين صالح لكل زمان ومكان وبيئة؛ لأن عوامل الحياة والاستمرار فيه لا تقبل الموت، ولا التبوتق في ظروف زمانية أو مكانية خاصة، فهو دين عابر للزمان والمكان، وتجدُّدُ الحياة وتطورها لا يزيده إلا وهجًا وإشراقًا. وهو دين يشتمل على كل مصالح الفطرة السليمة في العاجل والآجل، ويتضمن دفع كل ضر عليها في الدنيا والآخرة، وهو دين قابل للعمل به في كل حين، وفي كل مكان، وفي أي جانب من جوانب الحياة المختلفة. وهو دين العلم والحضارة، والرقي والتقدم، والتطور والإبداع، ويكفي تدليلاً على ذلك أن أول كلمة نزلت من الوحي هي كلمة العلم: {اقرأ}.

شبهة.. وجوابها:

وأما تقدم الكافرين في هذا المجال، وتأخر المسلمين فيه فليس سببه الأخذ بالإسلام، وإنما سببه: تخلي المسلمين عن بعض تعاليم دينهم، فلو تمسك المسلمون بالإسلام حق التمسك، وجعلوه رائدهم في كل سبيل لخرجوا من نفق التأخر المظلم، وصعدوا من وهدة الانحطاط الذليل. وثمت سبب آخر هو: أن المسلمين لا تنقصهم العقول المبدعة، ولا الأفهام العلمية المشرقة، بل لهم من ذلك نصيب وافر، وهم قادرون حقًا على السيادة العلمية الدنيوية؛ إذ لدى الأمة الإسلامية اليوم مسلمون في شتى بقاع العالم في كثير من التخصصات، وعندهم عقول جبارة، ولكنها لم تجد في بلاد المسلمين الأرضَ الخصبة لبذرها وإنتاجها؛ بسبب حربها من الداخل والخارج، أو شرائها من الغرب؛ لتعمل في نطاق المصلحة الغربية.

ودين الإسلام كذلك هو دين الرحمة في موضع الرحمة، ودين الشدة في موضع الشدة، قال تعالى: ((مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ))[الفتح:٢٩]، وقال: ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ))[التحريم:٩]. وهو دين العزة والسيادة، وليس دين الذل والتبعية، ((وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ))[المنافقون:٨]، وما ذل أهله إلا لقلة تمسكهم به، ومن قلّب صفحات التاريخ سيرى متى عز المسلمون وسادوا، ومتى ذلوا لغيرهم وانقادوا.

اقرأ التاريخ إذ فيه العبرْ... ضل قوم ليس يدرون الخبرْ[١].

وهو دين الاجتماع والاتحاد لكل من انضوى تحت لوائه، وإن تعددت الأجناس والبلدان، واللغات والألوان، ولا يعرف حدوداً يقف عندها، بل حدوده الكرة الأرضية كلها.

خلود الإسلام:

إن دين الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم باقٍ في هذه الدنيا لا ينسخ، خالد لا يفنى، حي لا يموت بمكر الماكرين به، وتخلّي أهله عنه. فوعد الله ببقاء هذا الدين لا يتبدل، وعناصر الخلود عنه لا تذهب، فهو دين الحياة حتى تفنى الحياة والأحياء، قال تعالى: ((يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ))[التوبة:٣٢]((هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ))[التوبة:٣٣].

صمود السفينة في وجه العاصفة:

إن أعداء الإسلام لا ينامون عن عداوته، ولا يفترون عن مقارعته، وهم في هذا الطريق سائرون، وبكل قوة لديهم له محاربون، ولو تُرِك الإسلام لحفظ الخلق دون حفظ الله لذهب، ولكن الله سلّم. ومع شدة الكيد، وقوة المكر فإن الإسلام اليوم حي متجدد، منطلق في فضاء التمدد، رغم كل سهام الحرب التي توجه صوبه، بل إنها لا تزيده إلا ثباتًا واتساعًا ووضوحاً. يقول أحد الغربيين: ".. إن الاعتداء على الإسلام لا تُرجى منه فائدة.. ولن يرد المسلمين عن دينهم، ولن يعوق النهضة الإسلامية، بل سيقوّيها"[٢]. لكن الحقيقة التي يعلمها

---

١ موسوعة الشعر الإسلامي (٢٤/ ١).

٢ قالوا عن الإسلام، د/ عماد الدين خليل (ص: ٤٧٧).

أهل الباطل عن بقاء سفينة الإسلام وصمودها الدائم في محيط الحياة المتلاطم بالحرب الشعواء، وعنفوان أعاصير المكر الهوجاء؛ لم تثنهم عن مواصلة المعركة، بل ازدادوا حربًا وخبثًا، فماذا فعلوا بعد عجزهم العسكري عن وقف مدِّ الإسلام المتدفق، وتياره الشديد؟

حبائل المكر، ووسائل الحرب:

لقد سلك أعداء الحق القدماء والمعاصرون طريقًا خبثيًا ألا وهو: محاولة القضاء عليه من الداخل. فالقدماء منهم أدخلوا فيه البدع والخرافات التي جاءوا بها من اليهودية أو النصرانية المحرفتين، أو من الهندية أو البوذية أو الفارسية أو اليونانية، أو غيرها. فصار لتلك الأفكار المنحرفة مدارس ومنظِّرون، ومناهج ومتبِعون، ففرقوا بذلك الأمة، حتى بقي من تلك الانحرافات الفكرية بقايا إلى يومنا هذا تعمل على وتر التمزيق والتفريق. وأما أعداء الإسلام المعاصرون فقد أيقنوا من خلال قراءة متأنية للواقع أن دين الإسلام اليوم لا يعيش مرحلة انكفاء وانحسار، بل يعيش مرحلة امتداد وانتشار، مع كل محاربتهم التي وجوهها نحوه؛ لكبح جماح توسعه، وإيقاف عنفوان جذبه لأهل الديانات الأخرى، أو لمن لا دين له.

فلجأوا إلى سلاح تشويه الإسلام، وتشويه أهله المؤثرين، وقد حصل منهم ذلك عبر عدة قنوات عملية، منها:

تشجيع الأفكار المنحرفة، ودعم أهلها ماديًا ومعنويًا، ومنها: تأجيج الاحتراب الداخلي بين المسلمين، وإطالة أمد الصراع والاقتتال؛ حتى يبقى المسلمون منشغلين بأنفسهم، وحتى يقول أولئك الأعداء لغير المسلمين: هذا واقع دين المسلمين، وهذه حياتهم معه. ومنها: السيطرة على قرر المسلمين، وجعلهم تحت التبعية الغربية القائمة على الهضم، ودفن النهوض؛ من أجل أن لا تقوم للمسلمين نهضة وحضارة معاصرة تجذب غير المسلمين ممن يتعلقون بالحياة المادية، ومنها: استقطاب بعض الشخصيات التي تجيد حسن الخطاب، وقوة التأثير الجماهيري، واحتواؤها ودعمها وتلميعها؛ من أجل أن تشكك في بعض مسلمات الدين، وتزعزع ثوابت المسلمين، ومنها: إحياء تباين الآراء وتعدد الاختلافات التي قد عفا عليها الزمن بين المسلمين والترويج لها، ومنها: محاربة كل من يريد الخروج من تحت القبعة الغربية من المسلمين، وتأليب الرأي العام عليه، ووصمه بالألقاب المنفرة عنه. ومنها-وهو من أخبثها-: إعادة صياغة إسلام جديد لا يتعارض مع المصالح الغربية؛ بحيث يقضي على روح العزة والتميز، ويكتفي صاحب الإسلام الجديد ببعض شعائر الإسلام الذاتية، مع العمل على تفتيت رابط الأخوة الإسلامية، واستقبال كل إساءة واعتداء من غير إبداء دفاع، وتعطيل شرائع الإسلام المهمة التي تجعل

من المسلمين أمة قوة عزيزة ذات سيادة. وهذا الإسلام الجديد يسمى بالإسلام الأمريكي، أو الإسلام الشعبي؛ لأن أمريكا عبر مؤسساتها الاسترتيجية؛ كمؤسسة "راند" تولت كبر هذا الموضوع.

فهل وعى المسلمون اليوم حقيقة المعركة، وطبيعتها، وأبعاد الصراع بين الحق والباطل؟.

إشكال وجوابه:

ومن هنا تولد اليوم إشكال فهمي لدى بعض المسلمين حينما ازداد الجهل بالدين، وكثر على آفاق العقول رهجُ المشبِّهين وهم يرون المسلمين متفرقين فكريًا وجغرافيًا، ومتمزقين عواطفَ ومواقف، حتى صرح بعضهم قائلًا: بأي فهم نفهم الإسلام الصحيح، هل بفهم طائفة كذا، أو حزب كذا، أو جماعة كذا، أو الشيخ فلان؟.

وحلُّ هذا الإشكال سهل لمن كان صادقًا في البحث عن الحقيقة، والتجرد للحق، والانطلاق من دائرة الإنصاف نحو الصواب، وهو: أن الطوائف والجماعات، والأحزاب والشخصيات ليست معصومة من الزلل، ففيها حق وباطل، ولكن الشيء المعصوم الذي نجد الحل فيه هو: كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسنة رسول الله الصحيحة، وسيرته وحياته التي تمثَّلّ فيها الإسلامَ في أبهى صوره. فننظر كيف فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف عمل، وكيف تعامل مع ربه، ومع كتابه، ومع نفسه، وكيف تعامل مع المسلمين، وكيف تعامل مع الكافرين، فنقتدي به، ونسير على دربه، قال تعالى: ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا))[الأحزاب:٢١].

وهذا الأمر يوجب على الإنسان المتحير في مفترق الطرق الرجوعَ الواعي إلى القرآن والسنة الصحيحة، وسؤال أهل العلم الموثوق بعلمهم، وإنصافهم، كما أنه يوجب على علماء الأمة الكبار أن يصدعوا بالحق بحكمة، وأن لا يكنوا مؤطَّرين ضمن طوائف وجماعات، وأحزاب وتكتلات يدورون في إطارها في الحق والباطل، يسمعون بسمعها، وينظرون بعيونها، ويفكرون بعقولها، ولا يخرجون عن مشروعها الضيق.

الحياة مع الإسلام:

إن الإسلام الذي ترجى آثاره الحسنة في الدنيا والآخرة، وتُصلح به الأحوال الخاصة والعامة ليس هو الانتساب إلى الإسلام من غير ممارسة عملية باطنًا وظاهراً في واقع حياة الإنسان. فالحياة الإسلامية للمسلم مع دينه العظيم لا تنحصر في جانب واحد من جوانب الإسلام مع إفراغ الجوانب الأخرى من شعائر هذا الدين الحنيف، بل الحياة الحقيقية مع الإسلام أن يكون هو الحاكمَ والموجِّه والنور في جميع شؤون حياة المسلم. فيكون الإسلام معه في جميع مظاهر حياته الخاصة والعامة.

الحياة مع الإسلام أن يكون الإسلام هو منطلق المسلم إلى أهدافه، ومرجعه عند اختلاف أموره، وليست الحياة مع الإسلام أن ينتقى منه ما يوافق الهوى، ويترك ما لا يوافقه.

ثمرة العمل:

إن المسلم إذا صبغ حياته بالإسلام الصافي باطنًا وظاهراً، وسمع وأطاع ما جاء فيه، وسار عليه في حياته كلها فإنه سيعيش حياة سعيدة، معمورة بالاطمئنان والراحة، وستقبل إلى فنائه وفود الخيرات، وسترحل عنه كتائب المكدِّرات، وأهل الإسلام إذا حكَّموا الإسلام في جميع جوانب حياتهم الخاصة والعامة عاشوا أعزة شرفاء، وصارت لهم مكانة مرموقة عند الله تعالى، وبين خلقه. فما أحسنَ الحياة والإسلامُ حاكمها، وشريعته حية في جميع شؤونها، يَرِدها الناس ويصدرون عنها، ولا يلجؤون إلى سواها مما يخالفها. أهل هذه الحياة تُفْتحُ عليهم بركاتُ السماء والأرض، ويحفظ لهم الدين والنفس والمال والعرض، وتصلح جميع أحوالهم، ويعيشون في جنة في الدنيا قبل جنة الآخرة بإذن الله تعالى.

قال تعالى: ((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[الأعراف:٩٦]، وقال: ((مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))[النحل:٩٧].

التكليف:

وبعد هذا، فماذا علينا تجاه نعمة الإسلام العظيمة التي منَّ الله تعالى بها علينا من غير جهد منا ولا قوة؟؛ فبعض المسلمين الجُدد اليوم يظلون يبحثون عن الدين الحق سنوات إثر سنوات، ويبذلون أشياء كثيرة من جهد ووقت، ومال وتحرٍّ حتى يصلوا بعد ذلك إلى نعمة الإسلام التي وصلتَ إليك-أيها المسلم- عن طريق أبويك، ومجتمعك المسلم؛ فلهذا لا غرابة أن نرى لدى بعض المسلمين الجدد تمسكًا شديداً بالإسلام، وحرصًا كبيراً عليه، وحزنًا على أهله المظلومين، وفي المقابل نرى انفلاتًا عند بعض المسلمين الذين أخذوا دين الإسلام بالوراثة.

فعلينا أن نشكر الله تعالى ونحمده على هذه النعمة العظيمة، ونجعل من أنفسنا أهلاً لها بصلاح أعمالنا. وعلينا كذلك: أن نبذل جزءاً من وقتنا لمعرفة ديننا، والتفقه فيه؛ لنكون على دراية به؛ ولنحمي أنفسنا من الشبهات التي تُثار حوله، فمن كان ذا بصيرة بدينه، وعملٍ خالص لربه صار له درعٌ واقٍ من سهام الأهواء المضلِّة، والشهوات المزلِّة. وما تشرَّب متشرب شبهاتِ الضلال إلا لجهله، أو ميل نفسه إلى حب الشهوات، أو الظفر بالمصالح العاجلة. وعلينا أيضًا: أن نعمل بشعائر ديننا في باطننا وظاهرنا، وأن نكون مسلمين حقًا وصدقًا، فلا يكون الإسلام في جانب ونحن بأعمالنا في جانب آخر مباينٍ له. وأخيراً علينا: أن نسأل أنفسنا هذا السؤال: ماذا قدمنا للإسلام؟، فإذا متنا كنا قد وضعنا لبنة في صرح الإسلام المشيد، أو شاركنا في حمايته وحراسته.

وفي الختام:

هذه قصة رجل حمل همَّ نشر الإسلام، وحرص على إيصال هذا الخير إلى من لا يعرفه، وجدَّ واجتهد حتى بسقت شجرة جهده وعطائه، وأثمرت ثمرات يانعة باقية.

هذا الرجل لم يكن عالمًا شرعيًا، وإنما كان طبيبًا متخصصًا في الأمراض الباطنية، والجهاز الهضمي، هجر هذا الطبيب مكان الدعة والترف والراحة إلى مكان الفقر والنصب والتعب، وانتقل من علاج الأجساد إلى علاج الأرواح والأجساد معًا في قارة أفريقيا. هذا الرجل هو الدكتور الداعية المبارك: عبد الرحمن السميط رحمه الله، الذي ترك الكويت ونعيمها واتجه نحو القارة السمراء لإضاءتها بنور الإسلام. فبقي في تلك الوجهة الدعوية تسعًا وعشرين سنة، فما هي ثمرات هذا العطاء العمري الكريم في تلك البلاد؟

لقد أسلم على يديه أحد عشر مليون إنسان، كما في بعض الإحصائيات، هؤلاء غير الذين سيسلمون على أيدي هؤلاء المسلمين بعد وفاته، فكم هو الأجر العظيم الذي سيناله هذا الرجل-إن شاء الله-؟، رحمه الله رحمة واسعة.

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

الفهرس

المقدمة ٤
الحياة في ظل معرفة الله، جل جلاله ٦
أهل الثناء والمجد: ٦
ثمرة الحديث عن الله سبحانه وتعالى: ٧
صاحب الكمال المطلق: ٧
الرب العظيم: ٧
الرب القدير: ٨
الرب الخالق: ٨
الرب الرزاق: ٩
الرب العليم: ٩
الرب الحكيم: ٩
الرب الحليم: ١٠
الرب الرحمن الرحيم: ١٠
استحقاق الله تبارك وتعالى للعبادة: ١١
اللذة العظمى: ١١
التكليف: ١٤
الحياة في ظل الاهتداء بكتاب الله ١٥
الحياة في ظل اتباع رسول الله، صلى الله عليه وسلم ٢٣
الحياة في ظل العمل بالإسلام ٣٠
الفهرس ٣٨